مسألة اقتناع !

قصة بقلم حميدة عزام

تعثرت يداه وانزلقتا على السروال ، وهو يتلمس جيبه بحثا عن المفتاح ، وارتعش حين تواصل والزمن بنصف دقة أطلقتها ساعة غير بعيدة ، فانتثرت حبات من الرذاذ تشبثت بأطراف الشعيرات النابتة على ذقن غير حليقة ، وحين عثر على المفتاح زاق الباب وفتح فارتمى على البطانيات المشعثة التي كانت كل فراشه ، ولبث دقائق لا يتحرك وقد ضغط على اذنين مزكومتين بعواء كلاب ضالة . وفي الخارج اهتزت الصنوبرات فتحركت عيناه تجوسان الغرفة وتستقران على البندقية المركونة الى الجدار ، ولكن الباب لم يفتح ، ولم يغط على الاهتزاز الا هدير شاحنة تنحدر في الطريق المسفلت حديثا . كانت يده باردة فنفخ فيها وانتبه الى ان الغرفة ليست مضاءة الا من شريط نور انسل عبر النافذة الواحدة العالية من مصباح معلق في طرف الحديقة . ووقف تحت الشريط محاولا أن يلف سيجاره فانتثر التبغ وطارت الورقة ، وعثر على عقب مرمي فالتقطه وامتص منه نفسا مرا أجهز على البقية منه . وتماسك محاولا أن يفكر . كان حذاؤه يحمل آثار طين رخو علق به من تربة البساتين ، فلا بد من تنظيفه بأي شيء ، وقد حرص على ألا يدوس على الممر المرصوف فتنطبع خطواته من البوابة حتى غرفته ، ذلك أمر سهل ، وقد تخلص من العلبة الثقيلة التي لا يعرف كم تحمل من الشوكات والملاعق والسكاكين ، ولكنه يعرف انها كانت تكفي كل هؤلاء الذين يجمعون في الدارة بمناسبة وبغير مناسبة ، ويعرف ان أطرافها مدموغة بالحرفين الاولين من اسم صاحبها يأتلقان كلما جلاهما الطباخ بالدواء وهو يقف على الافريز ويثرثر في السياسة التي يتهجأ أخبارها من جرايد عتيقة يدفع بها اليه السائق كلما قام بتنظيف السيارة . كانت العلبة أول ما تبادر الى ذهنه حين فكر بضرورة وقوع سرقة ، وأما تلك القطعة الاخرى التي لم يلحظ شكلها فقد نهشها بالصدفة ليبدو الفراغ وآثار الفوضى واضحة في الخزانة فتلحظ السرقة . لقد فعلها ، وعليه قبل أن تعود الساعة فتدق أي شيء يتجاوز نصف الدورة ، أن ينسى ذلك كله . عشرة أيام لهث فيها تحت انفعالات مستجدة ، وكممارس عريق كان عليه أن يدرس المسرح وطريقة التنفيذ ، ولم يغفل حين ناداه الطباخ ذات صباح ليصيب من بقايا وليمة أن يستل مفتاح باب الشرفة ويحمله الى من ينسخه له ثم يعيده الى مكانه بعد ساعتين دون أن يلحظ أحد ذلك . عشرة أيام جند فيها كل ما انتهى اليه من مسلسلات التليفزيون البوليسية التي أتيح له أن يشهد بعضها حين كان ينسل الى الفيللا ليتفرج عليها في غياب أصحاب الدار ، وكان موفقا بأكثر مما حلم لولا هذا الارتعاش في يديه ، وهذا الوهم الذي يعود له كلما اهتزت الصنوبرات ان هناك من سيدفع الباب ويدخل ليبصق في وجهه ، وقد مسح الرذاذ بكمه رغم انه لن يسمح بذلك ابدا ... ان زهرة واحدة من حديقة « الذوات » الثلاثة الذين يحرس بيوتهم لم تدخل ذمته . والليلة تجرح ذمته بكل الاطراف الحادة للعلبة المثقلة بأشياء لا يعرف ، لو بقيت له ، ما يفعل بها . ولكنها كانت ضرورة تقنع أصحاب الدارات الثلاث ان شق الشارع وفرشه بكل أطنان الزفت، وغرسه بعشرين عمودا كهربائيا لن تقعد لصا عن مصاولتهم فلا يقول أحدهم وهو ينفخ سيجارة في وجه جاره عبر السياج المخضر كلاما يسقط عبر نافذته « أظننا ، بعد تعبيد الطريق وانارتها ، لن نكون بحاجة الى حارس » . فأحس برجفة هزئت بتلك الايام المشمسة الكسلى التي يقول فيها الناس أي شيء يخطر لهم ، فتململ ثم انتفض وطار ليل القيلولة من عينيه . بلا حارس ؟ وما يفعل بنفسه ؟ وأنّت الاريكة التي أصبح خشبها متشربا بتبغه ورائحة جسده تسرقون او لا تسرقون ، ليس هذا كل شيء ولو انه لم يكسل ليلة واحدة عن الطواف بكل أطراف المحلة مطبقا راحته على بندقية أكل حديدها من كتفه . ولكنه في الخمسين لن يحس شيئا الا أن يجوس كالواوية، وأن يفتح أذنيه لاصغر نأمة من قنفذ ، وفي الخمسين لن يسهل عليه أن يعمل حمالا في الميناء أو سمسارا للعاهرات، وفي الخمسين لا بد له من أن يتناول عشاء ساخنا ولو مرتين في الاسبوع . لقد تحمل وحشة الليل طويلا مذ قامت هذه الدارات في ضواح غير آهلة وقد كان ايضا ، ناطور بناء لاحداها ، يومه ، بشقّيه ، نهار ، أما نومه فيختلسه اختلاسا في الغرفة التي أعطيت له ، وحين كان لا يجد ما يفعله ما كان يتوانى عن حمل مقص يشذب به شجر الحديقة ، واليوم بعد ان عبّدت الطريق ، وانتصبت فيها أعمدة النور ، يفكرون أول ما يفكرون بلفظه تخلصا من مرتب يتقاسمه الثلاثة ، ولكنه اذ سرق خص ، مضطرا وبعد تردد ، واحدا منهم ، أحبهم اليه ، والوحيد الذي

يلقى من أهله بعض التفات ، الامر الذي تركه على معرفة بأكثر ما في البيت . ولما استولت عليه فكرة السرقة كخاطر أسود لجوج لم يفته ، وهو يعبر غرفة الطعام ، أن يرمق هذه العلبة بالذات ، وان يسحب مفتاح الخزانة الزجاجية التي تحتويها ويلقي به في جوف زهرية كبيرة بعد أن مسحه بكمه ، والواقع انه لم يمسحه الا بعد أن ألقى به للمرة الاولى ، ثم تذكر ـ شكرا للتليفزيون ـ ان ذلك يطبع بصماته عليه فتناوله ومسحه وألقى به ثانية ، لقد تصرف كلص هادىء الاعصاب ، وكان مستطيعا أن يستأني في كل ما يفعل ، فدخوله البيت كان مألوفا ، وكان صديقا للطباخ ، ولم يكن يريد أن تدفعه العجلة الى مزيد من التخريب ، لا أن يحطم زجاجا ولا أن يكسر قفلا ولا حتى أن يفيد مما يسرق ، ولقد تم كل شيء بدقة واحكام . فتح الشرفة بالمفتاح المنسوخ ، تك الباب ثم فتح . الكل نيام فسيارة سيد البيت قد استقرت في الكاراج قبل ساعة ونصف ، وقد أطفىء نور غرفة النوم بعد ربع ساعة من ذلك مباشرة ، والطباخ ينام في الطرف البعيد كثور خائر منذ التاسعة مساء ، وحين كان يتوسل اليه أن يساهره أحيانا كان يكاد لا يتحدث لان فمه يظل فاغرا بالتثاؤب .

دقت الساعة دقاتها الاربع وصدره ما يزال يخفق ، ومن بعيد أخذ صياح الديكة يتجاوب ، والعلبة تنام في قبرها الرطيب تحت ليمونة رشيقة ، ولقد ميز الشجرة بسلخ طرف من جذعها فقد يستخرج العلبة يوما بعد أن يوفق الى طريقة لذلك وقد يعيدها لاصحابها لو تم له ذلك دون ادانة . فهو ، قطعا ، لا يريدها لنفسه ، ولا يفكر أبدا في بيعها ، أو حتى في منحها لاحد . لا يبغي منها الا أن يكتشف غيابها ويستهول ولا يعنيه بعد ذلك لو عادت ، او ابتلعتها الارض ، أو تعثر بها محظوظ . الساعة تدق وتذكره ان الصباح وشيك وانه يجب أن يحاول النوم مطمئنا كحارس حتى لا يستيقظ فزعا كلص. تسرقون او لا تسرقون ليس هذا من شأنه ، وقد باعوه بعبارة عبر سياج ، وكل الليالي التي سهرها وبندقيته وحيدين الا من بضع سجائر لم يشعر بها أحد . لقد باعهم عينيه المفتوحتين لقاء القليل ، وهذا القليل تواطأت عليه الاعمدة التي تزهو بعيون صماء تقوم في رؤوسها .

***

في الصباح فتح عينيه أو تظاهر بأنه يفتحهما حين طرق الطباخ الباب بكلتا يديه ، وفي الصباح ظل تليفون الدارة يحاور كل ألوان الارقام ، وفي الصباح سأله سيد البيت ألف مرة ، وسيدته اكثر من ذلك ، كيف لم يلحظ اللص المتسلل وكيف سمح بذلك اذا كان يدعي ان عينيه مفتوحتان ، وانهما ، اذ فتحتا ، مبصرتان ، وفي المرات الالف كان يجيب **بأنه** عادة في الرابعة يأوي الى غرفته ، بعد أن تنشط سيارات معمل الالبان القريب ، **وانه أحيانا** ـ وسيده خير من يعرف ذلك ـ يترك الحراسة مبكرا اكثر اذ يحدث أن يكون سيده راجعا من سهرة مرحة فما أن ينتصب أمام سيارته ويلقي عليه تحية تحار في أن تكون صباحية أم مسائية كان يبادره بالقول « يكفيك الليلة . فما أظن اللص بالمرصاد .. دخن هذه ونم » . ويمنحه سيجارة اميركية . **وان** عملية الحراسة عنده هي جولة يقوم بها بين الساعة والاخرى طائفا بالبيوت الثلاثة ، **وان** أشياء كثيرة يمكن أن تقع بين ساعة وأخرى . وفي الصباح جاء محقق ثان وثالث وسجلت افادته وبصم عليها ، ومثلت السرقة ولم يكن تمثيلها بحاجة الى كل ذلك الذكاء ، فالباب مفتوح دون عنف ، وكذلك خزانة الفضيات ، ولما سئل سيده هل يتهم **أحدا** (واذ قال المحقق أحدا مسحه والطباخ وجميلة بنظرة حادة) لم يحر جوابا ، أما سيدته فكانت أكثر مروءة اذ أبدت انها تثق فيهم جميعا ، وقد أبدى هو استعداده لان تفتش غرفته ، وأصر ففعلوا وقد نبشوا صندوق حاجاته وحاجات الطباخ ، ولما عربدت جميلة وهم يستنطقونها قالت سيدته « ما تفعل جميلة بكل هذه الفضيات ؟ » ، ولم يفتها أن تسجل ان اللص على العموم ليس جشعا اذ عف عن عشرات التحف التي تزخر بها غرفة الطعام والصالون والابهاء الكثيرة . ولم ترق هذه الشهادة للمحقق فقال « بأن جبناء اللصوص يبترون سرقاتهم اذا سمعوا نأمة » . وفحصت الخزانة والباب والمقابض وكل ما يمكن أن يكون قد لمسه ، وابتسم وهنأ نفسه لانه دفن القفازات الصوفية التي استعملها مع العلبة ولو هو أبقاها في بيته لما كان وجودها دليلا على شيء .

***

لقد اقتنعوا فعلا بأن ذكاء المحققين ليس دائما في مستوى دهاء اللصوص حين سجلت الدعوى ضد مجهول.

وقد اقتنعوا فعلا بأن صاحب الفعلة طارىء من خارج المنطقة واقتنعوا ، وهذا هو الاهم ، بأن شق الشارع بل وانارته لا يغنيان عن متوحد يعانق بندقية !

الوحيد الذي لم يقتنع كان هو ...

فهو ، بعد شهرين ، ما زال يتساءل لماذا طلب اليه أن يخلي الغرفة لحارس شاب جاء يبغي البندقية والغرفة معا !!

سميرة عزام

في البحرين

تطلب « الاداب » وكتب « دار الاداب »

من

الشركة العربية للوكالات والتوزيع

شارع المتنبي